كعكة باردة

اليوم أتممتُ الأربعين من عمري، أجلسُ على حافة نافذتي، أشاهد بعض الصبية، والفتيات وهم يحتفلون بعيدِ ميلاد أحدهم.

أنظر إليهم مبتسمة.. أتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي احتفلتُ فيها بعيد ميلادي.

حينها لم يطرأ في ذهني أنني سأصل يومًا إلى هذا العمر، لقد كان هذا زمنًا بعيدًا عني، لم أكن أراه حتى في مخيلتي، فقد نازعتني تلك الرؤية وكأنها أشبهُ بحلم.

أتذكر أمي كيف كانت عندما وَصلت للأربعين، كنتُ أشعر بها خاوية، فارغة وكأن الحياة ألقت الحظَ العاثر أمامها، فكانت تسبق الحياة كل عام بألف عام.

لقد كبرت أمي، بعد رحيل أبي أصبحت تشيخ كل يوم.

صارت ترى تلك الشيخوخة فظة، ومباغتة، وكأنها جسدًا عاريًا يمتد فوقها، فتُدفن داخله حزنها العقيم.. رأيتها تكتسح ملامحها كلونٍ تتزين به..

فهي لم تكن ترغب بها، ولكنها أرادتها بشدة، فظلت تنمو أعلى جبينها، لتترك أثرًا على خديها العميقين، ولتُسرع مهرولة على وجههاِ فتتركها بجلدٍ منكسر وتجاعيدَ مشوهة.

والآن أنا أكره الأربعين، فذلك العمر مخيف، لم أكن مستعدةً لمواجهته.. فظللتُ أرى انعكاس صورتي في السادسة عشر، ذلك العمر الذي ما زالتُ أراه في مرآتي.

أستمعُ الآن لصوت الأطفال، وصياحهم يدوي في أذني.

تلك الطفلة ذات الجدائل الذهبية تُذكرني بنفسي عندما كنتُ في الثامنة من عمري.

كان عيد ميلادي الثامن، وموعد عودة أبي من رحلته.

أعدت لي أمي حفلة كبيرة، ودعت جميع صديقاتي.

زيَّنَت حديقة المنزل، واشترت لي زيًّا جديدًا.. كنتُ سعيدة تمنيتُ أن يظل عمري ثماني سنوات.

في تلك الليلة انتظرت قدوم أبي، فقد وعدني برحلة معه هديةً لعيدِ ميلادي.

بعد قليل رأيته يقف أمامي، حاملًا معه كعكتي، فقد كانت كعكة كبيرة.

أتذكر ابتسامته الجميلة، والتي ارتسمت على ثغرِهِ عندما صحتُ مهرولة نحوه «أبي»، ضمني إليه بشدة، وظل يحملني طويلًا متمنيًا لي عيد ميلاد سعيدًا.

نظرتُ إليه مبتسمة: اشتقت إليك كثيرًا.

ضمني إليه مرة أخرى هامسًا لي: وأنا أيضًا.

قام وأرخى يديه قليلًا ثم حمل كعكتي بين يديه ناظرًا حوله قائلًا: أين أمكِ؟

فأجبته: إنها في المنزل تعد لنا مزيدًا من الحلوى.

تركني وذهب داخلًا المنزل.

ظللتُ أراقبه حتى اختفى من أمام عيني، فعدتُّ لِلَّهْوِ مع صديقاتي، وجلسنا نمرح كثيرًا.

مر الوقت وأبي طال غيابه، وأمي لم تأتِ بعد.

فتوجهت إلى المنزل، أنادي عليه، ولكني لم أسمع صوته.. فوجدت كعكتي على الطاولة كانت لا تزال مُغلفة.

حينها سمعتُ صوت أنين أمي، فتوجهت نحو غرفتهما.

فتحتُ الباب، وإذا بأبي ينكفئ على فِراشه.

وأمي تجلس جانبه شاحبًا وجهها، عيناها تبكي بغزارة.

اقتربت منهما أكثر، وإذا بي أرى أبي يسقط أمامي، وعينيه تنظر نحوي.

كانت تلك النظرة الأخيرة التي نظر لي بها، فقد شعرتُ أنها باردة، سرقت مني حينها ذلك اليوم الذي كنت أَعُدُّ له حفلتي.

ما زال صوت صيحات الأطفال يدوي من حولي، وذلك الحفل أوشك على الانتهاء.

ولكن إلى الآن لم ينته حفلي بعد.

أنظر نحو السماء، تبدو ككأسٍ أزرقُ شاحب اللون.

تعكس بريقها داخل كؤوسنا لنرتشف منه لحظاتٍ تمر علينا، حاملة معها ذكرى.. ربما لليلة عيد ميلادنا.

كم كنتُ أتمنى أن أتناول قطعة من تلك الكعكة، فلقد صنعها أبي لي خصيصى.. لكن لا بأس سوف أسأل أمي من أين جلبها أبي؟

ولكن لا أعلم هل سيسمحون لي بزيارتها في تلك المصحة أم لا؟